ترجمات | قسم الفلسفة والعلوم الإنسانية | 25 أكتوبر 2022

إنـزال الجـنـة

كاثرين غوليو

ترجمة: محسن الودواري

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

جميع الحقوق محفوظة © 2022

All rights reserved © 2022

إنزال الجنة[1]

الكاتبة: **كاثرين غوليو**[2-3]
محسن الودواري[4]

1 العنوان الأصلي للمقال يعني «إعادة إنشاء الجنة» « **recréer le paradis** »، لكن آثرت ترجمتها بإنزال الجنة، لسبب بسيط، وهو أن المسلم يحمل عبر القرآن تصورا معينا للجنة بصفة عامة، وهذا التصور هو بمثابة المعيار الذي من خلاله يعمل على تشييد الحدائق، كمحاولة مستمرة لتنزيل التصور المثالي إلى أرض الواقع.

2 كاثرين غوليو: رئيسة تحرير لمجلة لوبوان خارج السلسلة أو الإصدارات الخاصة، اشتغلت صحفية اقتصادية (العلاقات الاجتماعية والإدارة)، تكتب هذه الأخيرة بشكل منتظم في تاريخ الأديان، وبالتحديد في الإسلام واليهودية.

3 **Catherine Golliau**, Philosophie du jardin, Recréer le Paradis, Le Point « références, les textes fondamentaux », Hors-série, Avril-Mai 2019, pages,20,21, 22,23.

4- حاصل على ماستر في الفلسفة والأنظمة المعرفية للخطاب، وطالب حقوق.

ملخص المترجم:

إن هذا النص الذي أمامنا يتطرق إلى موضوع الحدائق في الحضارة الإسلامية، وهو يحاول أن يعطينا نظرة عامة عن سيرورة الحدائق منذ أول الفتوحات الإسلامية، وبالتحديد في الأندلس مرتكزا على رؤية مزدوجة تجمع بين العمق التاريخي، عبر استفادة المسلمين من الإنتاج السابق للحضارات القديمة كالفرس والبابليين، وإعادة بلورة هذا الإنتاج وفق قالب إسلامي، والرؤية الثانية مستلهمة من القرآن الكريم الذي يمد المسلم بصورة مثالية عن الجنة، يحاول هذا الأخير بكل جهده التقني والفني محاكاتها والعيش على منوالها في الدنيا، مما يدخل هذا الأخير في غمار الانتعاش الروحي.

النص المترجم:

إن أول خطوة كان يقوم بها المسلم بعد الفتح هي تشييد الحدائق، هذا ما قام به عبد الرحمان الداخل (731-788م) آخر الأمويين عندما استقر بالأندلس، حيث شيّد حديقة تطلبت أربعين عاما من العمل، حنينا إلى مسقط رأسه بالشام. غرس فيها أشجارا من النخيل والرمان، وكذلك الياسمين وغيرها من الأزهار التي جلبها من بلاد الهند وتركستان والشرق الأدنى (بلاد الأناضول، الهلال الخصيب ومصر)؛ لأنه لم يكن شيء أجمل من إنشاء الحدائق على ضفاف الوادي الكبير[1]. ألم يصف القرآن جنة عدن برحاب شاسع تجري فيه أنهار من ماء غير آسن، ومن لبن لا يتغير طعمه، وخمر لذة للشاربين وكذلك أنهار من عسل مصفى؟ وعندما تم فتح بلاد الهند، سارع ظهير الدين بابُر[2] (1480- 1530م) السلطان المغولي الأعظم إلى إنشاء حديقة جميلة في أجرا[3]، استلهم منها في القرن 17 ميلادية ضريح تاج محل.

وتعتبر الحديقة في الثقافة الإسلامية فضاء ينتعش فيه الإنسان ويرتاح ويتأمل، وأيضا فضاء لاستجمام الروح «وإعادتها للحياة»، وحسب تفسير لويس ماسنيون سنة 1931 في كتابه (في الإسلام، الحدائق والجوامع، التجارة الحديثة، 1989) قائلا: «يذهلنا التصور الإسلامي للحديقة بـ(عمقه) وثباته»، فهي في الحقيقة مكان لحلم اليقظة الذي انتقل خارج العالم، إذ أول شيء يهم في الحديقة الإسلامية، هو الإغلاق حيث تُعْزل عن العالم الخارجي، وبدل من أن تكون الفائدة على الأطراف، فإنها تقع في المركز. ويضيف عالم الإسلاميات «ماسينيون»، «أن هذه الحدائق توفر راحة للفكر، كي يفكر الإنسان في ذاته».

ومنذ القرن السابع ميلادي، ومع توسع الحضارة الإسلامية شكلت هذه الأخيرة منعطفا في إنشاء وتصميم الحدائق. فالشعب البدوي الذي اعتاد على مناطق الصحراء، حيث الواحات هي الأماكن الوحيدة التي تزهو بالخضرة، سُحِروا العرب بالتصاميم والحدائق التي تم اكتشافها إبان فتوحاتهم، ففي منطقة غرب آسيا، حيث علقت في الأذهان الحدائق المعلقة للبابليين (القرن 6 ق.م – 24 ق.م) وحديقة كورش الكبير[4] (546 ق.م) بباسارجادي[5] في فارس، ومع الاستيلاء على إيران الساسانية، اكتشف المسلمون عملا مصقولا بشكل جيد وقائم على مبدأ الفضاء المغلق « Le Pairi-deaza » التي ستصير في التمثل والفكر الإسلامي بالجنات أو جنة عدن.

---

1 **الوادي الكبير**: « **Guadalquivir** » نهر يجري في منطقة الأندلس ويصب في المحيط الأطلسي غرب مضيق جبل طارق.

2 **ظهير الدين بابُر**: السلطان الأعظم، وخاقان مكرم ظهير الدين بابر بادشاه غازي كوركاني، مؤسس سلكنة المغول الهندية التيمورية التي حكمت شبه قارة الهند طيلة 300 سنة، إلى أن تم خلعها سنة 1857 من طرف البريطانيين.

3 مدينة هندية تقع في شمال الولاية من ولاية أتر برديش، حكمتها السلالة المغولية وبها يوجد ضريح تاج محل.

4 **كورش**: أو قورش، هو أول ملوك فارس (600 ق.م – 530 ق.م) مؤس الإمبراطورية الأخمينية، حكم ما بين (550 ق.م و529 ق.م) وقتل في ماساجت في باسارجاد.

5 باسارجاد: أو باسارغاد، هي مدينة فارس القديمة وكانت أول عاصمة للإمبراطورية الأخمينية، «إيران حاليا»

الحدائق الأربع:

تعوزنا المعلومات حول الأصول ومصادر هذه الحدائق التي يمكن أن يعود تاريخها إلى 4000 قبل الميلاد، فحديقة باسارغاد المؤرخة في القرن 6 ق.م و«تخت جمشيد[6]»، مدينة دايروش الأول (دايروش الأكبر)، التي انطلق بناؤها في القرن 5 ق.م، كانت المثال الأكثر شهرة والأحسن تشييدا. وصمم أيضا كورش الأول حديقة فرضت نفسها كنموذج، وفق تصميم رباعي «شاهار باغا» أو «الحدائق الأربع»، وهي حديقة رباعية الأضلاع تتداخل فيها القنوات والمجاري. وحينما صارت الزرادشتية دينا رسميا للساسانيين (القرن 3 و7م)، أعطوا مكانة كبرى للماء وللسواقي والأحواض والمضخات المائية، وهذه التحفة من الخضرة والنضارة، حيث يتداخل الضوء بالظل أسعدت الفاتحين العرب، مما دفعهم إلى تعلم تقنيات المجريات المائية الفارسية، حيث يمر الماء من الآبار والمضخات المائية عبر المجاري إلى الأراضي الجافة التي يتم سقيها بشكل ناجع. وهكذا تم إحياء رؤية جمالية جديدة أطلقها الفاتحين المسلمين من شواطئ المحيط الأطلسي إلى الصين، إذ تشيَّد الحديقة على شكل مستطيل، يتم على أساسه تقسيم المساحة على أرضية مربعة تحددها القنوات والمجاري، وكذلك تزيينها بالآيات القرآنية التي تعطي رونقا للأجنحة المصممة بشكل دقيق ومرن، وفق الحاجة الهندسية والذوق الجمالي.

وهكذا انتشر في شمال إفريقيا نموذجين من الحدائق؛ وهي الأغبال التي تعتبر بمثابة بستان شاسع مزين بالأحواض التي تستعمل للانتعاش والتمتع أكثر من كونها للزراعة «ذات بعد جمالي»، والرياض أو الحديقة المغلقة، حيث تحيط بها أسوار عالية تخلف روحانية لكون خاص تماما، فالرياض جنة مختلقة حيث يمكن الاستمتاع الكامل بكل ما يعتمل في الذات من نشوة روحية، كما تبرز الباحات المرصوفة بشكل خاص اللوحات الشرقية التي أعطت سمعة فنية للحديقة الموريسكية، التي تنمو فيها الخضر، الأزهار، الأعشاب العطرية والأشجار المثمرة معا، حيث تُظِل الأشجار الباسقة أدناها عبر إنشاء دقيق يستجيب لمقتضيات المنزل الهندسية، ويسيح الماء كذلك بوجوده في كل مكان، إذ يتم نقل هذا السائل الثمين عبر المجاري التي تكون غالبا تحت الأرض، ويتم تخزين مياه الأمطار في الصهاريج.

إن حب الحديقة في الإسلام حفز المسلمين على تعلم التقنيات والعلوم الزراعية خصوصا النباتية، بعدما ورثوا هذه المعارف من اليونان، وكذلك بفضل الرحَّالة الذين مكنوهم من الاستقلال في هذا الجانب، وأيضا استلهموا واستوعبوا هذه الفنون واستدمجوها في النسيج والزرابي وبالتحديد في الشعر والأدب، فرواية «ألف ليلة وليلة» التي تعود إلى القرن الثامن، تحوي الكثير من القصص التي تحدث فينا أثرها الكبير، لكن

6 **تخت جمشيد**: أو برسبوليس: هي عاصمة الإمبراطورية الأخمينية (350-330 ق.م)، تبعد عن شيراز ب70 كيلومتر، ويعني الإسم عرش جمشيد أو بارسه، ويدعى هذا الموقع عند الفرس القدامى ب «مدينة الفرس».

في قصر الحمراء بغرناطة، تجسد هذه الأسوار مجد الحدائق التي تجلي جمال ينابيع فناء الأسود، التي قال فيها وزير بني الأحمر ابن زمرك[7]:

أمدامع منهلة أم لؤلؤ

لما استهل العارض المتلألئ

في هذا الفناء يربط قاع الحوض كتلة من الثلج التي يخترقها الماء المتدفق في حركة انسيابية، وعلى حافة النافورة تبدو الجداول النهرية مثل القنوات الطويلة التي تحمل الدموع التي تنفلت من الحبيب العاشق. وهذه النافورة تبدو كسحابة تغمر قطراتها الأُسود، كالغنائم التي يغنمها الخليفة ويوزعها كفيء إلى أسود حربه، كما أنها تبدو كأمواج تتدفق فوق هذه الوحوش الضارية التي تزحف منتشية أمام سيدها.

ولكن ما الذي تبقى اليوم من حدائق الأندلس الإسبانية، آخر إقطاعية مورية التي تم استردادها من طرف الإسبان المسحيين سنة 1492 «تاريخ سقوط الأندلس»، إسبانيا أمراء المسلمين؟

الشهادات الوحيدة التي لازالت دالة، هما قصري إشبيلية والحمراء بغرناطة، اللذان تم تدمير جزء منهما في الحرب الأهلية الإسبانية بين الجمهوريين والفرنكاويين «1936 - 1939»، ليتم في ما بعد ترميمهما ولكن بأشجار البقس، وبرؤية وأسلوب فرساي الفرنسية، ففي قصر الحمراء دفنت أحواض الزهور تحت الأرض بمتر واحد، والنباتات مختلفة جذريا عن الأصلية، وكذلك فناء الأسود المشهورة تهدمت عبر القرون، ولم يتم إبراز الفرق بين الردهات والممرات كما يتوجب، وكما شكلها العرب من خلال أزهار تجسد سجادة ملونة أسفل الممرات. ومع ذلك فإنه تنبعث اليوم ثقافة وأسلوب الروضة (ج. رياض) المغربية عند الأوروبيين، حيث يعملون على إحيائها كذوق وفضاء للتأمل والبحث عن الرومانسية والنضارة والمتعة الدائمة.

7 **ابن زمرك**: أبو عبد الله محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد الصريحي، المعروف بابن زمرك، من كبار كتاب وشعراء الأندلس، كان وزيرا لبني الأحمر، ولد بروض البيازين وتتلميذ على يد لسان الدين بن الخطيب.

MominounWithoutBorders

Mominoun

@ Mominoun_sm

مؤمنون بلا حدود
Mominoun Without Borders
للدراسات والأبحاث www.mominoun.com

info@mominoun.com
www.mominoun.com

All rights reserved © 2022

جميع الحقوق محفوظة © 2022